"الرحلة العلية" للشيخ محمد باي بلعالم - رحمه الله - نظرة تديكلتية وإشراقات أدبية.
 "The Attic Journey" by Sheikh Mohammed Bey Belalem - may God have mercy on him - a Tidal view and literary radiances.

ط. د. محمد بوزيزاوي¹.

Bouzizaoui mohammed¹.

¹جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر)، moh012019@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2022/05/07 تاريخ القبول: 2022/06/13 تاريخ النشر: 2023/06/01

ملخص: اعترافٌ بالجميل وحتى لا تذهب الجهود سداً، نقف عند كتاب "الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات" بجزأيه للعالم الجزائري" محمد باي بلعالم-رحمه الله- لنكتشف إقليم تديكلت ، ونقرّب أدب الرحلة الصحراوي، بإشكالات جزئية منها: هل هذا الكتاب مدخل لأدب الرحلة في إقليم توات ومنه تديكلت؟ وماهي بعض ملامح هذا الإقليم التاريخية والأدبية؟ وكيف استطاع العالم محمد باي بلعالم أن يجمع حضارة ممتدة من إقليم تديكلت إلى إقليم توات بين دفتي كتاب يحوى معارف متنوعة تمس الجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية، وتبعث رسائل للتاريخ للاعتبار والاستفادة؟ وأخيراً؛ ماهي أهمية أدب الرحلات في فهم طبيعة الصحراء؟ إنّ الكتاب بجزأيه هو محطة بحاجة للوقوف والقراءة لما يحمله من عناوين قوية الدلالة تحاكي الطبقات الفكرية من علماء ووجهاء وغيرهم وتنزل إلى البسطاء، لتتقل حقبة تاريخية من الزمن تميزت بالمعرفة والتواصل العلمي، جُبد فيها أدب الرحلة بين إقليم تديكلت وإقليم توات.

كلمات مفتاحية:الرحلة العلية، محمد باي بلعالم، أدب الرحلة.

Abstract:In recognition of the grace and so that efforts do not go in vain, we stop at the book "The Attic Journey to the Touat region to mention some of the flags, monuments, manuscripts and customs and what connects Touat from the regions" with its two parts to the Algerian world," Mohamed Bey Belalem - may God have mercy on him - to discover the region of Tadekelt, and we approach the desert literature of the journey, with its problems Partial, including: Is this book an introduction to the literature of the journey in the region of Touat and from it Tadeklet? What are some of the historical and literary features of this region? And how was the scientist Muhammad Bay Belalem able to gather a civilization extending from the province of Tadeklet to the province of Touat

between the two covers of a book containing various knowledge that touches on the religious, social and political aspects And it sends messages to history for consideration and benefit, and finally: What is the importance of travel literature in understanding the nature of the desert? The book, in both parts, is a station that needs to stand and read because of the strong titles it bears that mimic the intellectual classes of scholars, dignitaries and others. It goes down to the simple people to convey a historical era of time characterized by knowledge and scientific communication, in which he embodied the literature of the journey between the province of Tadeklet and the province of Touat.

Keywords: The Attic Journey. Mohamed Bey Belalem . Travel Literature.

المؤلف المرسل: ط.د. محمد بوزيزاوي، الإيميل: moh012019@univ-adrar.edu.dz

1. مقدمة :

الإنسان يحتاج دائما وأبداً إلى الترحال ليتترك قيما تتوارثها الأجيال. لعدة أسباب أولها: إشباع نَهْمِهِ الذي يخالج خواطره وأنفاسه الباحثة في الحياة عن الاكتشافات والإضافات؛ وثانيها: البحث عن إجابة لأسئلة ملازمة له والتي يحاول أن يجد لها إجابات مناسبة تتلاءم وتطبعاته الوجودية؛ وثالثها: السعي لإدراك حقيقة الخلود من الخصوصيات الكونية خاصة ظاهرة الموت التي عجز على مجابتهها والوقوف في طريقها وقد نغست عليه متعة الحياة، فأصبح النصّ الشعري كمثل فقط، محطة للخلود ورسم التاريخ. وبهذا وصل إلى الأدب كجزء من ترحاله المستمر والدائم. وهنا يمكن أن نطرح سؤالاً: هل نشأة أدب الرحلات كانت عفوية أم أنها ضرورة تاريخية لتحقيق الذات الإنسانية؟ وما هي أنواع أدب الرحلات؟ وهل لأدب الرحلات حضور في عمق الصحراء؟

2. ماهية أدب الرحلات:

بالعودة إلى لسان العرب: ندرك المعاني اللغوية المتعددة لكلمة الرحلة. الرَّحْلُ: مركب البعير والناقة وجمعه أَرْحُلٌ وِرْحَالٌ، والرَّحَالَةُ مركب النساء والرجال، والرَّحْلُ والرَّحُولُ والرَّحَالُ: منزل الرجل؛ والترحيل والإرحال بمعنى الأشخاص والإزعاج؛ ورحل الرجل إذا سار؛ ورجل رحول وقوم رُحُلٌ أي يرتحلون كثيراً؛ وفي نوادر العرب: ناقة رجيله ورجيل ومُرْجيلة ومسترجلة أي

نجيبة؛ والترخُّ والارتحال: بمعنى الانتقال؛ وأرَحَلَتِ الإبل: سمنت بعد هزال فأطاعت الرحلة؛ والرَّحلاء من الشياه التي ابيضَّ ظهرها واسودَّ سائرُها؛ والمرحلة: واحدة المراحل. (منظور، الصفحات (1608-16011)). فالمعنى يدور حول الترحال المكاني أو الزماني أو الحياتي باستخدام مراكب الترحال المناسبة؛ فالصحراء يصلح لها البعير والناقة والفرس باعتبارهم سفن الصحراء تتحمل المشاق وتتحمل الأثقال. والبيت تصلح له المرأة باعتبارها السند القوي والمناسب للرجل في رحلته لمكافحة أعباء الحياة وأثقالها.

وفي معجم "اللغة العربية المعاصر" مادة: رحل: سار ومضى توفي؛ أرحل الشخص: كثرت أسفاره؛ استرحل: طلب منه ركوبة؛ رحَّال: دائم التنقل؛ رحلة مفرد رحلات: خرج للنزهة والترويح عن النفس؛ أو كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى مثل: رحلة ابن جبير؛ رحلة ابن بطوطة؛ ومرحلة: تبنى على خطوات منها، مسافة، عمر، مشروع (أحمد مختار عمر، 1429-2008، الصفحات 871-869).

فهو دائم الحركة على أرض الواقع، أو بين جوانبه النفسية، أو بين محطاته الفكرية، ليصنع إضافة أويحقق تناعماً أو يكتب تجربة خالدة يستفيد منها الراحلون عبر التاريخ والتراث والزمن البعيد بالقراءة أو التعلم. وهنا تتجلى قيمة الرحلة بالنسبة للإنسان فهي تنمي ذاته وتحاكي طموحه وتبديد أوهامه متشعباً بالحقائق والتجارب الراسخة والمفيدة. فالرحلة عطية ربانية يشرب منها الفكر والذوق والوجدان، ليدرك حقيقة الله ويعرف أنه خُلِقَ ليرتحل، بين الظلمات، وبين الفترات التربوية التعليمية، وبين الحقب التاريخية، وليدرك السعادة على مستوياتها، فالعلماء حققوا جزءاً من السعادة، والمصلحون حققوا جزءاً من السعادة، والمتزوجون أيضاً حققوا جزءاً من السعادة. وبهذا فالرحلة *Littérature de voyages* فن من الفنون الأدبية التي شاعت حديثاً بسبب اختلاط الشعوب، وسهولة المواصلات، وحب الإطلاع (محمد، 2003، صفحة 134)

أما كلمة أدب: فمنها الأدب الذي: يؤدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدب الدعاء فهو مدعاة ومأدبة؛ وأدبُهُ فتأدَّب: علمه (منظور، صفحة 43)؛ وقد تطرَّق الناقد المصري "أحمد الشايب" في كتابه "أصول النقد الأدبي" إلى سؤال مهم مفاده: ما الأدب؟

باحثاً في ماهيته، ليخلص إلى أن: الأدب ينحل إلى عناصر أربعة هي. أولاً: العاطفة وهي أهم عنصر فني من حيث الغاية أو الوسيلة للنشر؛ وثانياً: الخيال الموقظ للعواطف؛ وثالثاً: الفكرة التي تمثل الغاية المقصودة؛ وأخيراً: الصورة التي تجسد المعاني، فهي مجتمعة كالجسم الواحد لتعطي التكامل الأدبي. (أحمد، ط2(1942)، صفحة 31) فالأدب هو المحفز والدافع لمعرفة الحس الفني والجمالي، والبنية المنسجمة التي يستطيع الأديب أن يجسدها بقوته الداخلية النابعة من زيادة الشعور وصدق التجربة وصقل الموهبة. وبهذا ندرك أن هناك أدباً فنعطيهِ ميزته وقيمته. فتجلت الأقسام الأدبية المتنوعة من الأدب الجاهلي إلى الأدب الأموي، إلى الأدب العباسي، إلى يومنا هذا مستلهماً من الحقب السياسية التي أثرت بقوتها وحضورها الدائم.

فالأدب هو الفن اللغوي الجميل الذي يعبر عن تجربة في شكل معين، وقد مرَّ الجذر الثلاثي "أدب" بعدة معاني؛ فقد حمل معنى الدعوة في العصر الجاهلي على صيغة اسم فاعل "أدب"، وحمل معنى التهذيب في صدر الإسلام، وحمل معنى المؤدب في العصر الأموي، وحمل معاني جملة من الضرب واللعب والفروسية كما ورد في عناوين الكتب في العصر العباسي. (سميرة صادق، ج1(2007-1428)، صفحة 6)

واليوم انتشر الأدب سطحياً بسبب الضعف السياسي، وتنوعت المشارب لتتجلى آداب أخرى متنوعة مسّت الحياة النفسية والاجتماعية والثقافية، والفئات العمرية، فظهر أدب الطفل، وأدب الرحلة. وهذا الأخير مكنّ ظهوره من تقارب الحياة الإنسانية ومقارنتها لتستفيد الحضارات من بعضها البعض، ومما سبق نصل إلى السؤال الوجيه؛ ما هو أدب الرحلة؟ وما أهميته؟

3. أهمية أدب الرحلة وكتاب " الرحلة العلية":

إنّ الكتابات الأدبية بينت أنّ هناك أدباً يتميز بخصوصية الترحال المكاني أو الزماني أو الخيالي، لإبراز الملامح الأثرية والمعالم التاريخية وإثبات الحضور التجاري لمختلف الشعوب من خلال أدب الرحلة أو الرحلات الذي هو "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات

وسلوك وأخلاق" (أحمد مختار عمر، 2008-1429، صفحة 871). فهو واقع ملموس ولكن يُنقل بانطباع ذاتي بحاجة إلى مراقبة وتحقيق، وبخاصة إلى شخصية صادقة فاعلة تجسد رؤية موضوعية بأبعاد إنسانية أو تاريخية أو دينية لتعطي الاستمرارية للتجارب الإنسانية. ما يؤكد أنّ أدب الرحلات ذاكرة مرحلية" ذاكرة يمكن الرجوع إليها لقراءة المعلومات المسجلة على صفحاتها أو لإضافة معلومات جديدة، أو الاستغناء عن معلومات لم نعد في حاجة إليها، وهذه المعلومات تزول لحظة إيقاف الكمبيوتر عن العمل" (أحمد مختار عمر، 2008-1429، صفحة 871). وإن كانت هذه النظرة تتصل بذاكرة معينة وهي ذاكرة الكمبيوتر إلا أنه بالتأمل يمكن أن نسقطها على أدب الرحلات بأنه ذاكرة حقيقة لا يمكن الاستغناء عنها لمواصلة التحدي والنجاح في الحياة، وهي لا تزول إلا بزوالها لأنها تمس الفكر والوجدان وتصنع قيماً يستفيد منها الإنسان. فإذا ما رجعنا إلى أهمية الرحلة ندرك ذلك" الرحلة قد ساعدت على اكتشاف مواطن الإنسان، أي كوكبه الأرضي، كما أدت بهذا الإنسان أن يدرك مدى انتشاره في تفاعلها، وأنّ البشر قد سلخوا مناحي مختلفة وتعددت أسنتهم إلى جانب تنوع طرائق حياتهم" (حسين، 1989، صفحة 11). فبالرحلات اكتشف الإنسان البلدان والثقافات واللغات وحصلت المقارنات والاستقادات، وعرف الإنسان نفسه وربّه، وتمكّن من إثبات ذاته والسعي لتحسين حياته والنظر إلى مستقبله. "وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة، لذا كان للرحلات قيمة تعليمية من حيث أنها أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان وإثراءً لفكره وتأملاً عن نفسه وعن الآخرين" (حسين، 1989، صفحة 15). فالرحلة مدرسة، وفي المدرسة يتعلم الإنسان المعارف والتجارب والخبرات، وهي مدرسة اختيارية مفروضة على كل الناس قد لا يشعرون بها ولكن يستفيدون منها تلقائياً فيما متعددة تتصل بأنماط الحياة وبمستويات مختلفة.

فمنط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة، تتوفر فيه مادة وفيرة تُلهم المؤرّخ والجغرافي وعلماء الاجتماع ومؤرخي الأدب والأديان والأساطير، بما تحمله من قيم عديدة منها العلمية: المتمثلة في المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها؛ ومنها

الأدبية: المتمثلة فيما تعرضه من أساليب ترتفع إلى علم الأدب وترتقي إلى مستوى الخيال الفني (حسين م.، ط2 (1983-1403)، الصفحات 8-6). ومنها الدينية والسياسية والنفسية بحسب الحاجة وبحسب الطلب. ويشير المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله؛ إلى مميزات بعض الرّحّالين من خلال كتاباتهم بقوله " فمنهم من غلب على كتاباته الطابع الديني، ومنهم من إهتم بالعلم ورجاله، ومنهم من تحدّث عن المدن ووصف (المسالك والممالك)، ولكن أعمالهم جميعاً أصبحت لا غنى عنها للمؤرخين والجغرافيين والأدباء وعلماء الاجتماع" (أبو القاسم، 1983، صفحة 203). فهي مرجعية يستفيد منها من يحتاج إليها، وهي أرضية جاهزة للانطلاق نحو التناغم والانسجام وتبادل الفرص والخبرات وفق المجالات المطلوبة، ويبقى هذا التنوع في الوصف هو النقطة الفاصلة التي تميز الرّحّال في حد ذاته، ويغذي خصوصيته الفكرية لتكتمل باكتمال رحلته وتظهر للعيان بالكتابة أو الرواية أو التجسيد.

ولمّا لأدب الرحلة من قيمة ومردودية تاريخية وأنية يفهمها الرّحّالون ويحسنون توثيقها ورسم معالمها، يشير محققاً ومقدماً كتاب الرحلة العياشية بقولهما " فأدب الرحلة على هذا الصعيد يشكل ثروة معرفية كبيرة، وخراناً للقصص والظواهر والأفكار فضلاً عن كونه مادة سردية مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيونٌ تتجول، وأنفسٌ تتفعل بما ترى، ووعيٌ يُلم بالأشياء ويحللها ويراقب الظواهر ويتفكر بها" (أبو، ط1 (2006)، صفحة 9). فالرحّالة ذو خصوصية معينة تسمح له بإدراك ما حوله من الفوارق، فأحساسه زائد ونظرته ثاقبة وفكره واسع، والغريب في الأمر أنّ الرحلة والتنقل ملك للجميع ولكن خصوصية التأثير والتسجيل والتصوير والنقد والتفاعل والتميز لا يمتلكها إلا من يعرف قيمة الرحلة وأبعادها الحياتية وامتداداتها الانسانية، لتترك بصمتها وتحدد وجهتها" يشترط في كاتب الرحلة أن يكون دقيق الملاحظة، واسع الإطلاع، عارفاً بلغات القوم الذين ينزل بينهم مطّلاً (مطّلعاً) على تاريخهم رشيق الأسلوب، يتّبع طريق الإشارة كما فعل ابن بطوطة قديماً وأمين الريحاني حديثاً (محمد، 2003، صفحة 135).

وقد برع العرب في رحلاتهم الحياتية وجسدها كتابياً، ونظراً لاتساع المساحة وتعدد الأقاليم وتنوع الحضارات تركت بصمتها الدينية والتاريخية والجغرافية. فتميزت الرحلات العربية

انطلاقاً من بعض النماذج البارزة بالعلمية عند "ابن جبير" وبالخرافية عند ابن "بطوطة" وبالترجمة الذاتية عند "ابن خلدون" وبالانفتاح على البلاد الأجنبية عند الطهطاوي والشرقاوي (حسين م.، ط2(1983-1403)، صفحة 109). و تميزت أيضاً بالدينية في "الاسراء والمعراج"، وبالخيالية في "رسالة الغفران" واتسعت لتشمل الجانب الصحراوي والإفريقي في "الرحلة العلية" و "وصف إفريقيا".

ومن هذا المنطلق نجد أنّ المشرق العربي أو الإسلامي أخذ حظه الأوفر من المقصدية الترحالية لأسباب عديدة أولها الجانب الديني في حج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي - صلى الله عليه وسلم- وهنا نتوقف عند سؤال مهم مفاده: ما مدى تأثير شريعة الحج على ازدهار أدب الرحلات المشرقية؟ والسبب الثاني النظرة الاستشراقية لاكتشاف جذور وحقيقة الدين الإسلامي بالنسبة لعلماء الغرب، لصنع المجد وبناء الحضارة واسترجاع النفوذ خاصة على بيت المقدس "الرحلة بأنواعها الدينية والعلمية والسياحية والاضطرارية: مثلث طريقاً للمجد وشكلت سبيلاً للشهرة والتألق في مجتمع ظلت أنظاره وقلوبه وأفئدته مرتبطة بالمشرق كرمز للصفاء والطهارة والنقاء؛ وكعلامة للجذور والأصول؛ وكمنبع للشريعة والحقيقة" (أبو ، ط1(2006)، صفحة 11).

وقبل قراءة عنوان الكتاب "الرحلة العلية" نعرض على "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري لنفرق بين الرحلة الواقعية والرحلة الخيالية ولنذكر الأهمية المنوطة بهذا الجنس الأدبي في نقل التجارب البشرية خاصة إذا ما تحققت معاملة في الحياة البشرية: فهي نص أدبي بامتياز رحل فيه صاحبه من خلال التساؤلات الفكرية والانطلاقات الروحية والقضايا الكونية مجيباً على بعض أسئلة "ابن القارح" فهي رحلة أدبية تعالج معنى التوبة والمغفرة بأسلوب ساخر يحاور فيه عمالقة الأدب العربي في جزئيات ثانوية وفي حياة البرزخ الجنة والنار والوقوف في المحشر. كتبها سنة 424هـ وهو في الثالثة والستين من عمره، كأنها خلاصة رحلته الفكرية الأدبية، راداً على رسالة "ابن القارح" بأسلوب أدبي راقٍ وساخر يشد الوجدان والشعور ويفرض الحضور الذهني لفهم الانسجام التاريخي. فبدأها بالفردوس واصفاً نعيمها ومستشهداً بالآيات الدالة عليها؛ منتقلاً بين ندامى الفردوس أخي شمالة وأخي دوس ويونس

بن حبيب الضبي وابن مسعدة المجاشعي وغيرهم يتذكرون في الجنة وقائع العرب ومقاتل الفرسان؛ ليصل إلى نزهة ابن القارح وحديث الأعشى وزهير وعبيد بن الأبرص الأسدي وعدي بن زيد والهذلي والنابعين (نابغة بني جعدة ونابغة بني سفيان) ومجلس الغناء وحديث ليبي ومشاجرة الجعدي والأعشى ليصل إلى خمسة نفر وهم عُوران قيس وكلهم شعراء (قيس، تميم بن مقبل العجلاني، عمرو بن أحمد الباهلي، والشماخ معقل بن ضرار، وراعي الإبل عبيد بن الحصين النمري، وحميد بن ثور الهذلي) (أبو العلاء، ط2(2012)، الصفحات 23-43). وكلهم كيف نال المغفرة إما توبة أو شفاعاة، أو نية حسنة. وهذه أعلى درجات الجنة التي حثنا النبي -صلى الله عليه وسلم- على طلبها. وبهذا يبعث أبو العلاء المعري رسالة روحية تربوية إيمانية للنابعين والحاصفين بحقيقة الحياة الباقية ونكران الحياة الفانية، وأن للإنسان إلا ما سعى وقدم، وبهذا الترحال جسد كذلك أبو العلاء رحلة العلمية في الحياة التي قضاها في بناء ذاته ومجابهة أقرانه والانتصار للحق في مشواره.

ويواصل رحلته مجيباً على أسئلة في صميم الروح باللقاءات الروحية في المحشر موظفا شخصية "ابن القارح" في حوارات حتى وصوله إلى الجنة بفضل شفاعاة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ليوصل رحلته عبر جنة الغفاريت ليعالج أشعار الجن وقضية الأسد الذي افترس عتبة بن أبي لهب، وصدق الحطيئة في هجاء نفسه كان سبب دخوله الجنة، مستحضرا محطات من التراث. وفي آخر الجنة يلتقي الخنساء وهي تنظر إلى أخيها صخر في النار وفيها يحاور إبليس -اللعين- وبشار بن برد وامراً القيس وعنتره وعلقمة بن عبدة وعمرو بن كلثوم والحارث البشكري وطرفة وأوس بن حجر وأبي كبير الهذلي والأخطل والمهلhel والشنفرى وتأبط شراً. وفجأة يعود إلى الفردوس وهو الأصل في حوار مع أبينا آدم -عليه السلام- على بعض الشعر المنسوب إليه، وفيها يلتقي كذلك بذات الصفا على شكل حياة؛ مستعيدا ما ذكره نابغة بن زبيان في شعره، ويعرج على الكندي والخور العين والرجاز - شعراء الرجز - كما يحاور رؤبة ويذكر نعيم الخلد (أبو العلاء، ط2(2012)، الصفحات 73-113). وهنا استطاع أن يمزج بين الخيال والفكر بعيدا عن الواقع ليجعل القارئ ينتقل بين الجنة والنار وبين الأدباء ويدرك حقيقة ما يصير إليه الإنسان.

وفي الأخير يرد على "ابن القارح" في أسئلته بجزئياتها، بعد التلميحات والتأصيلات في الجولة الأدبية الخيالية بين فطاحلة الأدب في نظرة نقدية يستخلص اللب ويغوص في العمق ناكراً على أهل الأدب شكائتهم الدائمة وبأنهم أهل صناعة وحرفة ويحذر من التكسب ، وإنما ينجح بعضهم ثم لا يلبث أن تزل قدمه، وإن كان الأدب على عهد بني أمية يقصد أهله بالجفوة فكيف يسلمون من بأس عند مملكة بني العباس؟ وإذا أصابتهم المحن في أيام الرشيد فكيف يطمع لهم بالحظ؟ ومن بغى التكسب بهذا الفن فقد أودع شرابه في شن غير ثقة على الوديعه(أبو العلاء، ط2(2012)، الصفحات 121-159). وبهذا ندرك أنّ أبا العلاء المعري قبل أن يرحل بنا بين محطات التاريخ وبين عوالم الكون، فهو ناقد حصيف استشرف بعد المعاني الأدبية فاستحضرها وقولبها ليصنع منها خلاصة وقيمة تنبه الرّوح، وترسم طريق الصناعة الأدبية وتحذر من الآفة التي انتشرت بين الأدباء، وهي التكسب مما أفقد الأدب خصوصيته الثابتة المبنية على القيم الروحية والاجتماعية والانسانية قبل المكاسب المادية. لقد أخذت هذه الرحلة مكانة علمية راقية من منطلق تركيزها على القيم السامية والقضايا الكونية والرجوع إلى المكاسب التراثية حتى تعدت الحدود. ومن هذه الجزئية الأخيرة نظرق باب "الرحلة العلية إلى منطقة توات" لفضيلة الشيخ الفقيه العالم العارف بالله باي بلعالم- رحمه الله- فمن عنوانه أخذ طابع الرحلة ولكن بخصوصية مكانية وطبيعة صحراوية، تتقارب تضاريسها وتتلاقى أناسها في رحب السعة وكمال الضيافة وصلابة الموقف وجودة العلم والفهم. رحلة للتوثيق أكثر منها للاستكشاف، رحلة من إقليم تديكلت إلى إقليم توات فيقول صاحب الرحلة محمد باي بن محمد عبد القادر " عشت في منطقة توات صبيّاً وشاباً وكهلاً وشيخاً تعليمياً وتعلماً وتدرّيساً وجلت في مقاطعاتها الثلاث وزرت كثيراً من القرى والمدارس والمساجد والمزارات والزوايا والآثارات والمخطوطات واطلعت على كثير من المؤلفات والإجازات والأشعار والعادات الدينية والاجتماعية والصناعات والتربة الزراعية"(محمد باي، ج1(2005)، صفحة 3). فهي رحلة العمر أراد المؤلف تدوينها وجمع ذكرياتها وتفاصيلها من غير ترتيب ولا حصر في عفوية وبساطة" فإن هذه الرحلة مفتوحة للقارئ لا يغلق عليه باب ولا يفصلها عنها فاصل ولا يحدده مجلس، فهو جمع للمعلومات وتدوينها لا ترتيبها

وتنظيمها" (محمد باي، ج1(2005)، صفحة د). وقد قَدِّم لها ومدحها مجموعة من العلماء في مقدمة طبع الكتاب منهم "عبد الرحمن شيبان" رئيس جمعية علماء المسلمين؛ والشيخ الحاج عبد الرحمن حفصي، أستاذ ومدرس بمسجد الإمام البخاري بعمنات أولف ولاية أدرار؛ ومحمد الطاهر آيت علجت وغيرهم.

4. نظرة تديكلتية وإشراقات أدبية في كتاب "الرحلة العلية":

يسلط الكتاب الضوء على إقليم توات الكبير الذي يتيه في عمق الصحراء بتاريخه وعاداته وتقاليد، ونظرا لخصوصية الصحراء الجزائرية الكبيرة كان لزاما أن يكون هذا الكتاب وأمثاله لنقل واقع المعاناة وتسجيل طابع المواصلات ورسم معالم تلك الحضارات. وبهذا فكتاب "الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات" لصاحبه الشيخ محمد باي بلعالم، في جزأيه يعد وثيقة ثمينة ورحلة علمية، نفسية، تاريخية، إجتماعية، توثيقية، إحصائية، وإن كانت حقيبتها قريبة، بعفويتها وبساطتها ركز فيها صاحبها على مساجلاته العلمية مع علماء المنطقة، والدور الذي قام به من أجل خدمة الحياة الدينية وترسيخ الفهم الصحيح، فيها الرسائل والأشعار والمقتطفات التاريخية والأدبية وملخصات لمقالات تخص المنطقة إضافة إلى العادات والتقاليد وازدهار المدارس الدينية ومناهجها التعليمية التي ساهمت في المحافظة على المرجعية الدينية والهوية الإسلامية.

أما نظرتة التواتية التديكلية فنستخلصها من محطات متفرقة، من أن تديكلت إقليم من أقاليم توات المنطقة الجزائرية المقسمة إلى ثلاث (محمد باي، ج1(2005)، الصفحات 9-10):

أولا: تديكلت من فقارة الزوى شرق عين صالح إلى تيمقطن؛

ثانياً: المنطقة الوسطى من عريان الرأس (تسابيت) إلى انتهت (رقان)؛

ثالثاً: منطقة قورارة (تيميمون) إلى تيلكوزة.

حدودها شمالا الساورة وجنوبا تنزروفت وغربا عرق أركشاش وشرقا أمقيد في الجنوب الشرقي والهقار وفي الشرق الشمالي لمنيعة، وسكانها جزائريون وأفارقة، عمّرت قبل الإسلام وكانت تسمى الصحراء القبليّة، وكثرت عمارتها في غضون القرن الرابع هجري، وهي أرض ذات

سباخ، كثيرة الرمال والرياح، لا تحيط بها جبال ولا أشجار. ومعنى توات يصل إلى خمس معاني (قيل من الأتوات وهي المغارم؛ وقيل من الفواكه والخضر التي دُفعت كأتوات للموحدين؛ وقيل مشتق من سكان الصحراء الملتهمين؛ وقيل مشتق من مرض الرجلين يسمى توات؛ وقيل لأنها تواتي العبادة والاستقرار). أطلقت توات على : تديكلت وتوات وتيميمون. يغلب على سقيها نظام الفقارة. وبهذا يتضح أنّ تديكلت جزءٌ من إقليم توات الكبير، اختلف في تسميته، يحمل امتدادا تاريخيا وتضاريس صعبة، إلا أنّ الإنسان الصحراوي ظل متشبهاً بها وملازماً لها، ثم واصل الشيخ محمد باي بلعالم ذكر قرى إقليم توات التي وصلت ثلاثمائة وثلاثون قرية؛ منها قرى تديكلت واحد وعشرون قصرا تحت دائرة إنغر ومنها: الدغامشة، البركة، إكسطن، الساهلة، فقارة لعرب (محمد باي، ج1(2005)، صفحة 18) وغيرها. ومن الزوايا العلمية لمنطقة تديكلت بحسب الجدول (محمد باي، ج1(2005)، صفحة 421):

الرقم	اسم الزاوية	مكانها	مؤسسها	تاريخ التأسيس
1	زاوية شيخ الركب النبوي	بلدية أقبلي	سيدي محمد بن عبد الرحمن أبي نعامة	1137هـ
2	زاوية مولاي هبة	بلدية تمقطن	سيدي أبو الأنوار مولاي هبة	القرن 10هـ

كما ذكر محطات العلم والمخطوطات في توات منها:

-محطة ساهل أقبلي بعلمائها وتشتمل على مئات المخطوطات في كل فن؛ ومحطة زاوية سيدي أبي نعامة بأقبلي بعلمائها وتشتمل على قرابة ثلاثمائة مخطوط من فنون شتى (محمد باي، ج1(2005)، الصفحات 337-338)؛ ويذكر باقي الأقاليم بمحطاتها. وبهذا فقد بين أن تديكلت هي حاضرة العلم ومنبع الزوايا، وما يؤكد ذلك قوة المخطوطات وكثرتها الدالة على الإشعاع العلمي والنبوغ الفكري.

وفي الجزء الثاني من " الرحلة العلية" يشير إلى أهمية إقليم توات في القرن السادس عشر من خلال بعض المقالات والكتب نوجزها باختصار هي: (محمد باي، ج1(2005)، الصفحات 45-47)

1) أهمية إقتصادية من إنتاج التبغ والحناء والشعير والقمح، وتمركز الصناعات التقليدية والحرف كنسج البرانيس والحياكة؛

(2) وقوع الإقليم على طريق القوافل التجارية المتجهة نحو الشمال ونحو طرابلس؛
(3) مساحته الشاسعة الممتدة على ثلاثة آلاف كيلومتر مربع بمناطقه الثلاث تديكلت وقاعدتها عين صالح، وتيكورارين وقاعدتها تيميمون، ومنطقة توات وقاعدتها تمنظيط؛
(4) اجتماع العلم والدين والرياسة والتجارة والصراعات خاصة في تمنظيط
وفي نقله للتقسيمات الإدارية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مما كتبه محمود فرج في أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه " إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين" في حديثه عن إقليم تديكلت" وأما تديكلت القسم الشرقية منها التابعة لولاية تمنغراست فإنها تشتمل على دائرتين: دائرة إينغر؛ ودائرة عين صالح وعلى ثلاث بلديات: بلدية إينغر، بلدية عين صالح، بلدية فقارة الزوى" (محمد باي، ج1(2005)، الصفحات 67-68). ويعقب ساحل الكتاب على ما ذكره محمود فرج عن بعض قصور منطقة تديكلت، وفي ذلك يقدم تفصيلا لأهم القرى وبعض جهاتها: فأولف فيها قسبة مولاي عبد الله، وقسبة مولاي عبد الظاهر، وهما غير موجودتين في أولف، وعدم ذكره لبعض القرى مثل: قسبة ما يخاف، والركينة وأخنوس، والمرقب، وإينر، وقسبة الجنات والمنصور، وقصر مولاي الرشيد، وأولاد الحاج، وقصر الحسين، وقسبة السيد، وقصر المهدي، وبلاد المرتجي، وميمون، ولم يذكر في أقبلي البلد الأصلي زاوية بونعامة. ولم يذكر في إينغر قرية تورفين، والشويطر، ومليانة، والسبخة. وفي عين صالح لم يذكر الدغامشة محل المقاومة الشعبية. وذكر بلبال ومطريون في عين صالح وهما تابعان لأولف في تديكلت السفلانية. ولم يذكر فقارة العرب ولا فقارة الزوى رغم شهرتهما، وأما الساهلة فتقسم إلى الساهلة العليا والساهلة السفلى والقرية الجديدة جواليل(محمد باي، ج1(2005)، صفحة 79).

وفي حديثه عن المقاومة وعن أحداث عبر التاريخ، واهتمام الفرنسيين بإقليم توات، ذكر القنابل الذرية وآثارها السلبية وردود الأفعال حيث فجرت فرنسا اللعينة أربع قنابل كل قنبلة تضاغفت ثلاث مرات بداية من 1962 (اليربوع الأزرق- اليربوع الابيض- اليربوع الأخضر)، وقبلها اهتم الفرنسيون بالإقليم بارسال البعثات والجواسيس لدراسة المنطقة من كل الجوانب، ولكن فطنة وذكاء أهل توات حرمتهم الكثير وأخرت تقدمهم وسببت لهم مشاكل

كبيرة، خاصة التوارق ودورهم الفعال، مما نتج عن ذلك معارك أشهرها معركة الدغامشة، والبطحاء، وادي البريق، القطارة، الفقيرة، عين غار، عين الحجاج، وغيرها. وقد وظفت فيها فرنسا اللعينة خبثها ومكرها. وبعد الاستقلال جاء ميثاق الثورة الزراعية سنة 1971 الذي أعتبر قبلة تفجرت في الفلاحة بالنسبة للمالكين، أما بالنسبة للمستفيدين فكان رحمة ومكسب للحياة، فظهر ميثاق الثورة الزراعية ظاهره رحمة وباطنه نقمة، وذكر كذلك الفيضانات الجارفة سنة 1965 بإقليم تديكلت، خاصة أولف التي خسرت بسببها المخطوطات العلمية لوجود البنائيات الطوبوية، إلى جانب الخسائر الروحية. وفي سنة 1982 وقعت أمطار غزيرة في رقان وتيميمون. (محمد باي، ج1 (2005)، الصفحات 292-330)

كما ذكر بعض العلماء حققوا الترابط في توات مع جميع المناطق منهم: بن أب المزمري، محمد بن مالك الفلاني، وأبو زيد الجنتوري، أبو العباس أحمد زروق البديوي، عمر بن عبد الرحمن التتلاي. وغيرهم من العلماء (محمد باي، ج1 (2005)، الصفحات 565-572).

5. خاتمة:

أدب الرحلات مساحة الالتقاء الروحي وفرصة لامتزاج الثقافات، ومخزن للوثائق والذكريات التاريخية، ومدرسة مجانية للتعلم والاستفادة من الآخرين. كما أنّ أدب الرحلات الصحراوي بندرته له خصوصية البعد وقساوة التضاريس الوعرة، وبهذا يعد كتاب "الرحلة العلية" وثيقة حية عن إقليم تديكلت خاصة وعن أقاليم توات عامة لما يحمله من المعطيات التاريخية والاجتماعية تخدم الخصوصية الصحراوية، يحتاج للدراسة والقراءة والتمعن أكثر لفهم هذه الطبيعة الصامتة بجمالها وذكرياتها الجميلة من غروب شمسها، إلى شموخ جبالها إلى صفاء رملها؛ ومن قامات علمائها إلى شهامة أبطالها، إلى عاداتها وتقاليدها المحافظة، ومما سبق نخلص إلى مايلي:

1) أدب الرحلة مبنى على الرحلة الإنسانية التي تنمي الذات وتحاكي الطموح وتبدد الأوهام، يشرب منها الفكر والذوق والوجدان ليدرك حقيقة الله، ويدرك حقيقة السعادة، ويدرك حقيقة الرقي الروحي والجمالي؛ نصه الأدب الذي يحضنه بحسه الفني والجمالي من زيادة الشعور

وصدق التجربة وصقل الموهبة. وبهذا ندرك أن هناك أدب الرحلة فنعطيه ميزته وقيمه. وهو مدرسة يتعلم فيها الإنسان المعارف والتجارب، وهو مدرسة مفروضة على كل الناس ملك للجميع يستفيدون منها تلقائياً. قيما متعددة تتصل بأنماط الحياة. فالرحلة تسمح للإنسان بإدراك ما حوله من الفوارق. لها عدة مقاصد منها الدينية والتاريخية والتعليمية والتوثيقية، (2) كتاب "الرحلة العلية" يحدد إقليم توات من فقارة الزوى شرق عين صالح إلى تيمقطن؛ ومن تسابيت إلى رقان؛ ومن تميمون إلى تملكوزة. حدودها شمالا الساورة وجنوبا تنزروفت وغربا عرق أركشاش وشرقا أمقيد في الجنوب الشرقي والهقار وفي الشرق الشمالي لمنيعة، منها قرى تديكلت واحد وعشرون قصرا. هي حاضرة العلم ومنبع الزوايا. له تاريخ وخاصة في مقاومة المستعمر الغاشم. وهذا ما يحتم علينا إعطاء أولوية وخصوصية في مزيد الاعتناء بهذه الكنوز التاريخية والحضارية.

6. قائمة المراجع:

- 1- ابن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب. القاهرة: دار المعارف.
- 2- الشايب أحمد. (ط2(1942)). أصول النقد الأدبي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- 3- المعري أبو العلاء. (ط2(2012)). رسالة الغفران. مصر: الهداوي.
- 4- بلعالم محمد باي. (ج1(2005)). الرحلة العلية إلى منطقة توات. الجزائر: دار هومة.
- 5- بوزواوي محمد. (2003). قاموس مصطلحات الأدب. دار مدني.
- 6- سالم أبو. (ط1(2006)). الرحلة العياشية. أبو ظبي: دار السويدي.
- 7- سعد الله أبو القاسم. (1983). تجارب في أدب الرحلة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 8- شعلان وآخرون سميرة صادق. (ج1(1428-2007)). معجم مصطلحات الأدب. القاهرة: مجمع العربية.
- 9- محمد فهم حسين. (1989). أدب الرحلات(عالم المعرفة). الكويت.
- 10- محمود حسين حسين. (ط2(1403-1983)). أدب الرحلة عند العرب. بيروت: دار الأندلس.
- 11- وآخرون أحمد مختار عمر. (1429-2008). معجم اللغة العربية المعاصر. القاهرة: عالم الكتب.